الزمن وتفاهة الشر في رواية الباغ

قراءة في ذهنية الإدراك والمعتقدات

د. ابتسام بنت عبد الله بن مبارك الحجرية (سلطنة عمان)

دكتوراه في النقد الأدبي

جامعة السلطان قابوس – كلية الآداب والعلوم الاجتماعية

قسم اللغة العربية – (سلطنة عمان)

" إلى بشرى: أنا وريا نتلو آيات عودتك؛ لنملأ الباغ صخبا.... "

"لاتدع الألم يسممك"

(من رواية "بنت مولانا جلال الدين الرومي" مورلمفروي)

الكلمات المفتاحية في البحث: الزمن، الزمن النفسي، تفاهة الشر، الإدراك، المعتقدات.

* * * * *

إن الزمن هو ذلك الكائن الغامض الذي يتحكم بنا، وبحياتنا، وبسيرورتنا، بل لا تتأتى تلك السيرورة إلا لأنها تتحرك بفعل الزمن، وقد انتقلت الفكرة ذاتها إلى الأدب، فالأحداث تحتاج إلى زمن لتتحرك ضمنه، لذلك لا يمكن التغاضي عن وجود الزمن في الأدب، مع فارق أن الأدب يقفز فوق مناطق الواقع الزمنية البطيئة، والتي لا يشعر بها إلا من يعايشها، كما أن الأدب يلعب على منطقة "الأكوان المتوازية Parallel Universe" بمعنى أنه يطرح الممكنات من الأحداث، والتجارب، ويضعها موضع الواقع النصي الذي يتناوله، فالنظرية المذكورة – الأكوان المتوازية – نظرية فيزيائية وضعها الفيزيائي هيو إيفيريت الثالث (Hugh Everett III)[1]، وتقوم على فكرة أن الكون هو عبارة عن أكوان متعددة، وهي تعتمد على موقع الراصد، بمعنى أنها أكوان متداخلة كل كون يدخل في كون آخر، اللعبة الرائعة في هذه الفكرة هي لعبة الزمن، حيث إن كل كون له زمنه، بمعنى أن لكل منا نسخة في هذا الكون، لكننا نختلف من كون لآخر، ففي كون نحن لم نولد، وفي كون آخر لنا مصير يختلف عن مصيرنا هذا، وفي آخر قد نكون قد انتهينا أو صرنا إلى الموت[2]، وقد عبَّر

---

(١) عاش ما بين عامي: ١٩٣٠ – ١٩٨٢

(٢) وولف، فريد آلان، مع القفزة الكمومية – كتاب يفلسف الفيزياء الجديدة لغير العلميين – سلسلة الثقافة المميزة (٨)، ترجمة: أدهم السّمان، مكتبة دار طلاس: دمشق، الطبعة الثانية: ٢٠٠٢، ص: بتصرف.

للاستزادة ينظر:

- Siegel, Ethan, article: Is There Another 'You' Out There In A Parallel Universe?, from: forbes: USA, published on: Nov 18, 2016, 10:00am, website: (https://www.forbes.com/sites/startswithabang/2016/11/18/is-there-another-you-out-there-in-a-parallel-universe/#304baef634f7).
- كاكو، ميشيو، فيزياء المستحيل، ترجمة: سعد الدين خرفان، سلسلة عالم المعرفة: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب: الكويت، العدد: (٣٩٩)، أبريل ٢٠١٣، ص: ٢٦٣ – ٢٨٨
- هوكينج، ستيفن وليونارد مولدينو، التصميم العظيم – إجابات جديدة عن أسئلة الكون الكبرى، ترجمة: أيمن أحمد عياد، دار التنوير للطباعة والنشر: بيروت، الطبعة الأولى: ٢٠١٣

بورخيس[1] عن هذه فكرة شبيهة بهذه الفكرة في قصته (حديقة الممرات المتشعبة) – نوردها لتبسيط الفكرة – بقوله: سلسلة لا نهائية من الأزمنة، في حالة نمو متفاقم، ينتشر على شكل ألياف متشابكة تتباعد، وتتقارب، وتتوازى. إن هذا النسيج الزمني – الذي تتقارب أصداؤه وتتشعب، وتتقاطع، أو يتجاهل بعضها بعضا على مر العصور – يحوي كل الإمكانات. ونحن غير موجودين في معظمها. أنت موجود في بعضها، لا أنا، وفي بعضها الآخر موجود أنا، لا أنت؛ ومع ذلك هناك ما نوجد فيه نحن الاثنان. وفي هذا الأخير، الذي حُبِيْتُ حظ الوجود فيه، تأتي أنت إلى بابي. وفي آخر وجدتني ميتا بعد أن تجاوزتَ الحديقة...[2]. ففكرة العوالم المتعددة فكرة تم تناولها أدبيا، وهي عرض الممكنات، والتحايل على الزمن في السرد.

عندما ظهر "تيار الوعي" بوصفه مدرسة أدبية انبثقت عن التحليل النفسي واعتمدت على تقنيات "التداعي الحر" وانثيالات اللاوعي، نقول عندما ظهر أظهر معه القدرة العالية للوعي واللاوعي في تحريك الأفكار في فترة زمنية قصيرة، فعلى سبيل المثال رواية "السيدة دالاواي/Mrs Dalloway" لفرجينيا وولف، تصور يوما في حياة امرأة تجهز لحفلة عشاء في بيتها، وقدرة الأفكار على السيطرة عليها في فترة زمنية قصيرة، وبمعنى أكثر دقة كان الزمن هو البطل المتحكم في هذا النوع من الأدب، أما في روايتنا التي نتناولها هنا، فإن الزمن يتلفّع بالذاكرة، فهو يظهر من خلال ذاكرة الكاتبة، ومن خلال ذاكرة التاريخ؛ والمرويات الشفهية التي يرويها الناس، لتأريخ أحداث هذه الرواية التي حدثت في أربعينيات القرن الماضي في فترة حكم السلطان سعيد بن تيمور والصراعات التي حدثت إبان حكمه.

إن الزمن في الأدب يتجاوز حدود البطء والبلادة في الواقع كما نعيشها، ففي الأدب هناك قفز وتعالٍ على البطء، فالزمن في الأدب لا يستغرق ما يستغرقه في الواقع – هذا إذا كان يوجد ما يسمى واقعا في الأساس – فالأدب يختصر المسافات الزمنية، فيقفز بين الماضي والمستقبل متجاوزا الحاضر ليعود إلى اللحظة، إن الأدب في أحايين مختلفة لا يصف أكثر من اللحظة، التي يعيشها، لكن ما لا يمكن أن يتجاوزه الزمن في الأدب أنه يتتبع تطورات الإدراك والمعتقدات. ففي رواية "الباغ" – للروائية العمانية "بشرى خلفان"– يتلاعب الزمن بمصائر الشخصيات، والتي سنقصرها على: راشد، وريا، وزاهر متجاوزين بقية

---

(١) كاتب أرجنتيني، احترف كتابة القصة وكان شاعرا وناقدا، عاش بين عامي: ١٨٩٩ – ١٩٨٦، (ويكيبيديا).

(٢) وولف، فريد آلان، مع القفزة الكمومية، ص: ١٩٩

لمن أراد الاطلاع على القصة فقد تم نشرها في:

- بورخيس، خورخي لويس، قصة قصيرة: حديقة الممرات المتشعبة، ترجمة: فوزي محيدلي، نشرت: يوم الأحد: ٧ نوفمبر ٢٠١٠، بجريدة المستقبل: لبنان، العدد: (٤٣٦٠٩٤)، الموقع الإلكتروني: (https://almustaqbal.com/article/436094/).

الشخصيات؛ لأنها تحمل معتقدات هي أقرب للمسلَّمات منها للمعتقدات القابلة للتغيير، فهي أقرب ما تكون لإيمان العجائز، تلك الزاوية التي تجعل أصحاب المعتقدات في حالة من الطمأنينة، وهم وحدهم من يعيدون التوازن، والاتزان للشخصيات التي ذكرناها.

إذن تنطلق هذه الورقة من إشكالية استعارية تقول: إن الزمن كفيل بمعالجة الجراح، وهذه الاستعارة الزمنية تفترض أن معتقداتنا التي نحملها تتطور، وتتعرض لنوع من الانتخاب كلما مر علينا الزمن، وكلما نضجنا مع أن الحقيقة أن الزمن لا يضع لنفسه شروطا في النضج، وليس بالضرورة أن نكون عقلانيين كلما مر بنا الزمن، وخاصة عندما لا ندرك ما الذي حصل في فترة من الفترات، إن القضايا عندما يلفها الغموض، وانعدام التبرير، لا يمكن أن تصنع معتقدات واضحة، وعقلانية، بل يظل صاحبها في غياهب الظلام، وسوء الفهم، والمرارات إلى أن يأتي الزمن ببطئه أو سرعته ليقذف قنابل التبرير بعد فوات الأوان، تلك هي لعبة الزمن في الحياة، إن العقلانية لا تأتي إلا متأخرة، وبالتالي لا يدرك الآخر كنه ما مر به، وتفاهته، أما الطرف الذي لم يتحدث لا يدرك الشر الذي قام به لغيره معتقدا أنه إنما يقوم بأداء واجبه بقطع النظر إن كان خيرا أو شرا، أو دون الوقوف على هذا الواجب إن كان خيرا أم شرا، وستعمل هذه الورقة على الإجابة عن الأسئلة الآتية: ١): كيف يتعامل الأدب مع الزمن؟ ٢): ما تأثير الزمن في تطور الإدراك والمعتقدات في رواية "الباغ"؟

الزمن في اللغة والاصطلاح:

في كتابهما "التصميم العظيم" يتساءل "هوكينغ" و"مولدينو" عن فرضية: إذا كان العالم مخلوقا منذ زمن محدد، فماذا حدث قبل ذلك؟ (يقال: إن القديس أوغسطينوس عندما سئل: ماذا كان يفعل الله قبل خلقنا؟ بأنه كان يعد الجحيم لمن يسألون تلك الأسئلة) إن الزمن كان خاصية للعالم الذي خلقه الله، فالزمن لم يكن موجودا قبل الخلق، وكان يعتقد بأن هذا الزمن ليس بهذا القدم[١]. فما الزمن الذي ولد بولادة الحياة؟ ما الزمن الذي كان كمنبّه وضع لإيقاظ الكون من سباته، وعمل كساعة مؤقتة، تؤقت لبداية الكون ونهايته؟.

ورد في (لسان العرب) مادة (زمن): أن الزَّمَنُ والزَّمانُ: اسم لقليل الوقت وكثيره، وفي المحكم: الزَّمَنُ والزَّمانُ: العَصْرُ، والجمع أَزْمُن وأَزْمان وأَزْمِنة. وزَمَنٌ زامِنٌ: شديد.

(١) هوكينج، ستيفن وليونارد مولدينو، التصميم العظيم – إجابات جديدة عن أسئلة الكون الكبرى، ترجمة: أيمن أحمد عياد، دار التنوير للطباعة والنشر: بيروت، الطبعة الأولى: ٢٠١٣، ص: ٦٥ – ٦٦

قد يبدو للوهلة الأولى أن لفظتي (الزمن والزمان) تحملان معنى واحدا، والأصل أن معنى (الزمن) ينقسم إلى قسمين: قسم عام: يدل على عموم الزمن، وهو معنى مشترك ما بين (الزمن والزمان)، فهما يدلان على عصر من العصور، فمثلا: حدث هذا الحدث في زمن أو زمان الدولة العباسية؛ بمعنى في عصر الدولة العباسية، فهذا مشترك المعنى بين اللفظتين. وهناك قسم خاص: يحمل خصوصية كل مصطلح منهما، وهو كما يرد في لسان العرب، قال شمر: الدَّهْر والزَّمان واحد؛ قال أَبو الهيثم: أَخطأَ شمر، الزَّمانُ زمانُ الرُّطَب، والفاكهة، وزمانُ الحرّ والبرد، قال: ويكون الزمانُ شهرين إلى ستة أَشهر، قال: والدَّهْرُ لا ينقطع؛ قال أَبو منصور: الدَّهْرُ عند العرب يقع على وقت الزمان من الأَزْمنة، وعلى مُدَّة الدنيا كلها، قال: وسمعت غير واحد من العرب يقول: أَقمنا بموضع كذا وعلى ماء كذا دهراً، وإن هذا البلد لا يحملنا دهراً طويلاً، والزمان يقع على الفَصْل من فصول السنة، وعلى مُدّة ولاية الرجل وما أَشبهه. وفي الحديث عن النبي (ﷺ)، أَنه قال لعَجوزٍ تَحَفَّى بها في السؤال وقال: كانت تأْتينا أَزْمانَ خديجة؛ أَراد حياتها، ثم قال: وإِنّ حُسْنَ العهد من الإيمان. والزمان يقع على جميع الدهر وبعضه.

نتبين من ذلك كله أن الزمان ما دل على مدة قصيرة ومعلومة، بمعنى أن (الزمان) يدل على موسم معين، وعلى وقت معلوم له فترة ابتداء وانتهاء، لكنها مدة قصيرة، لا تزيد عن الستة أشهر، فعلى سبيل المثال: فصول السنة، فكل فصل منها هو (زمان) وليس زمنا. أما الزمن فيحمل دلالة الكثرة والطول، يرد ذلك بقولنا: أَزْمَنَ الشيءُ: طال عليه الزَّمان، والاسم من ذلك الزَّمَنُ والزُّمْنَة؛ عن ابن الأَعرابي. وأَزْمَنَ بالمكان: أَقام به زَماناً، وعامله مُزامنة وزَماناً من الزَّمَن؛ الأَخيرة عن اللحياني. فالزمن يدل على الوفرة، وطول المدة، فنقول بالتالي أقمت زمنا في عمان، لطوله، فالزمان يصف الفترة القصيرة، أما الزمن فيختص بالفترات الطويلة التي تتجاوز لفظة الزمان، وكلاهما يدل على العصر، مع أننا نتحفظ في الأخذ بذلك؛ لأن العصر يتجاوز فترة الزمان، ويتفق مع الزمن.

ورد في تعريفات الجرجاني: أن الزمان هو مقدار حركة الفلك الأطلس عند الحكماء، عند المتكلمين: عبارة عن متجدد معلوم يقدر به متجدد آخر موهوم، كما يقال: "آتيك عند طلوع الشمس"، فإن طلوع الشمس معلوم، ومجيئه معلوم وموهوم، فإذا قرن ذلك الموهوم بذلك المعلوم زال الإيهام[1]. يعرض صاحب التعريفات تعريف الزمان عن الحكماء، وهو تعريف اقتصر على

(١) الجرجاني، معجم التعريفات – قاموس لمصطلحات وتعريف لعلوم الفقه واللغة والفلسفة والمنطق والتصوف والنحو والصرف والعروض والبلاغة: مبحث: الزاي مع الميم، تحقيق: محمد صدّيق المنشاوي، دار الفضيلة: القاهرة، (د.ط): ٢٠٠٤، ص: ٩٩

حركة الأفلاك كحركة الأرض والقمر وتكوّن الليل والنهار، والفصول الأربعة، فتعريفهم بذلك هو تعريف فيزيائي، وهناك رؤية المتكلمين (فلاسفة علم الكلام) وترتكز رؤيتهم للزمن بالمزاوجة بين معلوم وموهوم، ويمثله الجرجاني "آتيك عند طلوع الشمس" فطلوع الشمس واقعيا معلوم وهو بداية يوم جديد، وهو بالمقابل موهوم لأنه متحرك وغير ثابت، لذلك وأيضا المجيء مجردا من الزمان يوقع في اللبس والوهم إلى لحظة تحديد الزمن لإزالة الوهم والغموض.

أما في الاصطلاح فقد عرف "المعجم الفلسفي" الزمن بقوله: إنه عبارة عن وسط متجانس غير محدود تمر فيه الأحداث متلاحقة، والمدة جزء منه، وقد يطلق على مدة معينة(١). إذن الزمن ثابت، كل شيء متغير حوله، كل شيء يحدث بسببه وضمنه. والمدة جزء من الزمن؛ لذلك نقول عاش مدة من الزمن يفعل كذا، فالمدة جزء الزمن.

والزمان كما يعرفه "مراد وهبة" في "المعجم الفلسفي": مقدار للحركة المستديرة من جهة المقدم والمتأخر لا من جهة المسافة. والحركة متصلة، فالزمان متصل؛ لأنه يطابق المتصل وكل ما طابق المتصل فهو متصل، فإذا الزمان يتهيأ أن ينقسم بالتوهم؛ لأنه كل متصل كذلك، فإذا قسم ثبتت له في الوهم نهايات ونحن نسميها "آنات"(٢).

وبالانتقال إلى "موسوعة لالاند الفلسفية" نجد أنها تعرض مصطلح الزمن فيها بوصفه: حقبة تمتد من حدث سابق إلى حدث لاحق، بالمعنى عينه لكن في صورة خيالية أكثر، يجري تصور الزمان كأنه نوع من قاطرة متحركة تجرّ الأحداث تحت نَظَر مُشاهدٍ يواجه الحاضر دائما(٣). (إن أسف البشر على سوء استعمالهم للزمان الذي عاشوه من قبل لا يقودهم دائما إلى استعمال أفضل لما بقي من عمرهم(٤). تركز الموسوعة على خطية الحقب الزمنية ما بين زمن سابق (وهو ما يسمى بالماضي)، وبين زمن حاضر يصور اللحظة الحالية. فاللحظة التي يستشعر فيها الكائن الزمن هي اللحظة الحالية، يشعر به ويدرك الزمن، وتؤكد الموسوعة على أن الناس بالرغم من تقادم الزمن إلا أنهم لا يستخدمون الزمن بشكل جيد؛ لأن استعمال الزمن يعتمد على الإدراك، وهو ما سنفصل فيه لاحقا.

---

(١) المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية: القاهرة، (ب. ط): ١٩٨٣، ص:٩٥

(٢) وهبة، مراد، المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة: القاهرة، الطبعة الخامسة: ٢٠٠٧، ص: ٣٣٩

(٣) لالاند، أندريه، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب: خليل أحمد خليل، المجلد الثالث: (Z - R)، منشورات عويدات: بيروت – باريس، الطبعة الثانية: ٢٠٠١، ص: ١٤٣٣ – ١٤٣٧

(٤) لالاند، أندريه، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب: خليل أحمد خليل، المجلد الثالث: (Z - R)، منشورات عويدات: بيروت – باريس، الطبعة الثانية: ٢٠٠١، ص: ١٤٣٤

أما قاموس السرديات فقد أورد أن الزمنهو الفترة أو الفترات التي تقع فيها المواقف، والأحداث المقدمة (زمن القصة/Story Time) و(زمن المروي/Narrated Time)، والفترة أو الفترات التي يستغرقها عرض هذه المواقف والأحداث (زمن الخطاب/Discourse Time) و(زمن السرد/Narrating)[١]. الزمن في الأدب ينقسم إلى قسمين:

١): الزمن الذي وقع فيه الحدث: وهو الزمن الفعلي لحدوث القصة، والزمن الذي يروي فيه الرواية القصة وهو بعد حدوث القصة، وهناك ٢): زمن استغراق عرض الحدث، وهو زمن الخطاب كم استغرق الحدث وحكايته، والزمن الذي تم فيه السرد. فهو مرتبط بالأحداث وزمنها.

من خلال تعريف الزمن في الأدب نلاحظ أنه يتشظى إلى أزمنة متعددة، فمنها الزمن الفلكي، والتاريخي، والنفسي، والفيزيائي، والفلسفي، والنحوي، والبنائي(٢)، بل يتعداها إلى فكرة أن الزمن الحقيقي تمثله اللحظة التي تعيشها الشخصيات، فهي تلك اللحظة التي تدرك فيها ذواتها ووجودها، فالزمن ببساطة يساوي اللحظة في أغلب الأعمال الأدبية، وهي فلسفة أغلبنا في الواقع، إلا أن ما لا يدركه أكثرنا أن الزمن قابع في الذاكرة الإنسانية، وهو أمر لا يستطيع كما يقول القديس أوغسطين (Augustine): "إن طفولتي التي انتهت توجد في الزمن الماضي الذي انتهى، لكن صورتها أتأملها في الزمن الحاضر؛ لأنها مازالت في الذاكرة[٣]"، فالأدب يتجاوز الذاكرة مع أن شيئًا من الأحداث فيه هي عمل الذاكرة، وكذلك نحاول في الحياة الفعلية لكننا لا نستطيع تجاوز الذاكرة فعليا، فمن الصعب أن نكون انتقائيين تجاه ذاكرتنا. ومع ذلك نجد أنه يمكن أن يعيش الإنسان في لحظة حاضرة آنية أزمنة عدة في الماضي والمستقبل من خلال انفتاح الذاكرة والحلم. وبالتالي هذه التقنية الزمنية التي تحدَّث عنها برجسون (Bergson) في حديثه عن الديمومة، أمكن تمثلها وتوظيفها في الزمن الروائي، فأصبحت إحدى تقنياته. إلى جانب أن رؤية الشخصية الروائية تجاه الزمن تعبر عن رؤية الإنسان[٤].

وندرك من كل ما سبق من تعريفات الزمن بأنه مظهر وهمي يزمنن الأحياء، والأشياء فتتأثر بمضيه الوهمي، غير المرئي، غير المحسوس. والزمن كالأكسجين يعايشنا في كل

---

(١) برنس، جيرالد، قاموس السرديات، ترجمة: السيد إمام، ميريت للنشر: القاهرة، الطبعة الأولى: ٢٠٠٣، ص:٢٠١.

(٢) الأطرش، رابح، مفهوم الزمن في الفكر والأدب، مجلة العلوم الإنسانية، المجلد: ٢، العدد: ٢، مارس: ٢٠٠٦، يوجد المقال في الموقع الإلكتروني: (http://www.webreview.dz/IMG/pdf/2-_02.pdf)، ص: ٢.

(٣) الأطرش، رابح، مفهوم الزمن في الفكر والأدب، مجلة العلوم الإنسانية، المجلد: ٢، العدد: ٢، مارس: ٢٠٠٦، يوجد المقال في الموقع الإلكتروني: (http://www.webreview.dz/IMG/pdf/2-_02.pdf)، ص: ٧.

(٤) عوض الله، مها حسن يوسف، الزمن في الرواية العربية (١٩٦٠ – ٢٠٠٠)، أطروحة دكتوراة، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٢، ص: ٣٠ – ٣١.

لحظة من حياتنا، وفي كل مكان من حركاتنا، غير أننا لا نحس به، ولا نستطيع أن نتلمسه، ولا أن نراه، ولا أن نسمع حركته الوهمية على كل حال، ولا أن نشم رائحته إذ لا رائحة له؛ وإنما نتوهم، أو نتحقق، أننا نراه في غيرنا مجسدا: في شيب الإنسان وتجاعيد وجهه.... كما نرى أثر مرور الزمن وثقله وفعله ونشاطه في الإنسان حين يهرم....، فالزمن مظهر نفسي لا مادي، ويتجسد الوعي به من خلال ما يتسلط عليه بتأثيره الخفي غير الظاهر، لا من خلال مظهره في حد ذاته. فهو وعي خفي لكنه متسلط(١).

وبذلك نتبين أن أهمية الزمانية أنها تجعل العالم ممكنا، وذلك من خلال "الأفق"، وهو وحدة تخارجية. والتخارجات الزمانية هي انطلاقات "نحو" وانطلاقات "إلى". وهذه "الإلى/Wohin" تدل على أن انطلاقة التخارج تمتد، وتنبسط على هيئة أفق مما يجعل "في/Worin" ممكنا(٢)، بمعنى أن الزمن يرسم أفق الحياة من خلال تحديد خط البداية للحياة، وخط النهاية لها.

قبل الدخول إلى الكيفية التي يتعامل بها الأدب مع الزمن، سنسرد ملخصا لرواية "الباغ" تلك الرواية التي كتبتها الساردة العمانية "بشرى خلفان"، حيث صورت لنا المجتمع العماني قبل السبعينيات، وصورت الصراعات التي حدثت في هذا المجتمع، والتحولات المفصلية في التاريخ العماني، والتي هيأت للنهضة الحديثة، تلك الرواية التي جعلتنا نلهث وراء أحداثها المتسارعة، فالرواية بدأت بغضب عارم لم نعرف سببه، ولا صاحبه، وكل ما وقفنا عليه رجل يكاد يكون مجنونا يحمل أنثى تبدو مسلوبة الإرادة أمام غضبه وقراره المفاجئ بالرحيل، إلى جانب الطقس الذي يعاضده في جنونه، إذ السماء مشبعة بالسحب التراكمية، يهطل المطر بدلالة ابتلال ملابسهما، الرواية منذ مطلعها تجعلنا نتساءل من هذه المرأة لهذا الرجل المختل، أهي حبيبة أم زوجة؟ وأي سلطة يملكها هذا الرجل عليها لتخاطر بنفسها، وتخوض معه ما يمكن أن يكون واديا جارفا، ومن التي "تخوض" المرأة أم أن الحديث يحيل إلى كائن ثالث؟ لعبت الكاتبة لعبة مراوغة لتجذب قارئ روايتها، فالرواية ملغومة بالألغاز المستفزة التي تبحث عن كاشف لها وحالّ لها. ثم تتبين الشخصيات وتتكشف عن راشد وأخته ريا، وخروجهما إلى مسقط من بلدتهما (السراير)؛ بسبب ظلم عمهما لهما، بغية سلب أموالهما التي ورثاها من أبيهما، والتحولات التي حدثت في حياتهما بعد الاستقرار في مسقط، وانضمام راشد للعسكرية، وزواج رايا، وإنجابها لزاهر.

---

(١) مرتاض، عبدالملك، في نظرية الرواية – بحث في التقنيات، سلسلة عالم المعرفة: العدد: (٢٤٠)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب: الكويت، ديسمبر: ١٩٩٨، ص: ١٧٢ – ١٧٣

(٢) بدوي، عبد الرحمن، موسوعة الفلسفة، الجزء الثاني (ش – ي)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر: بيروت، الطبعة الأولى: ١٩٨٤، ص: ٥٥٩.

كيف يتعامل الأدب مع الزمن؟

يقسم الأدب الزمن إلى أنواع متعددة، وتتعدد التسميات، والمصطلحات، لكنها تحيل إلى المعنى ذاته وهي:

١): زمن الحكاية: والمقصود به زمن التخييل، أو زمن الحكي المجسد في الحكاية، وكيفية تجسيده على مستوى العالم التخييلي. ويتجلى في رواية "الباغ" بحكاية ريا وراشد، وأحداث "السراير" و"مسقط"، والتحولات في الشخصيات المعاضدة، وعندما يتحدث الأدب عن الزمن التخييلي فهو يقصد زمنا مختلفا عن زمن كتابة الرواية، فالأدب لا يصف الزمن بطريقة مباشرة شبيهة بالنقل المباشر للأحداث، بل يتحدث عن زمن سابق للحظة الكتابة. وهذا النوع من الزمن يعد ساحة لتحرك الأحداث والشخصيات.

٢): زمن الكتابة (زمن التلفظ): وهو زمن السرد، وهذا الزمن يخص حركة الصيغ اللفظية الحاضرة في النص، أي الزمن الذي يجسد حركة الكاتب، ففي هذا الزمن يقف الكاتب بوصفه مشاهدا لأحداث معينة.

٣): زمن القراءة: وهو زمن لا ينعكس، وهو الذي يحدد إدراكه للمجموع (مجموع الأحداث في بنية القصة)، وقد يكون عنصرا أدبيا شريطة أن يأخذه المؤلف في حسبانه داخل القصة، كأن يعلق في بداية الصفحة، بأن الساعة تشير إلى العاشرة صباحا، وأن يضيف في الصفحة الموالية، أن الساعة هي العاشرة وخمس. هناك أيضا كما يقول تودوروف: زمن الكاتب، وزمن القارئ، والزمن التاريخي[١].

إن الزمن الذي يهمنا هنا هو الزمن النفسي؛ لأنه هو زمن الشخصيات، وهو بؤرة الشعور بالزمن والكينونة في وسطه، ويقصد به الزمن الذاتي، حيث يتجاوز الحدود الزمانية والتقسيمات الخارجية (الماضي – الحاضر – المستقبل)، وبالتالي يمكن في لحظة واحدة آنية، أن يمتلك الإنسان عدة أزمنة متفرقة وعدة أنوات. وتتحرك الأنا بحرية في اتجاهات مختلفة ومتداخلة، والزمن يسيل، وتدور عجلته وفق الإيقاع الداخلي للذات الإنسانية، حيث تستحضر الماضي عبر الذاكرة في لحظة الحضور، وتتمثله، ويتجسد أمامها، أو يتجلى المستقبل عبر الحلم والتوقع في لحظة الحاضر، وقد يتباطأ الزمن في لحظة ضجر وانتظار، وقد يتسارع في حالة فرح، فتكون حركة الزمن وإيقاعه مرهونة بإيقاع المشاعر والأحاسيس[٢]، ويظهر هذا

---

(١) الأطرش، رابح، مفهوم الزمن في الفكر والأدب، مجلة العلوم الإنسانية، المجلد: ٢، العدد: ٢، مارس: ٢٠٠٦، يوجد المقال في الموقع الإلكتروني: (http://www.webreview.dz/IMG/pdf/2-_02.pdf)، ص: ١٠

(٢) عوض الله، مها حسن يوسف، الزمن في الرواية العربية (١٩٦٠ – ٢٠٠٠)، أطروحة دكتوراة، الجامعة الأردنية: ٢٠٠٢، ص: ١٧ – ١٨.

الزمن عن طريق السرد والحوارات المتمثلة في التعبير المباشر، وفي الاستعارات التي تلجأ إليها الشخصيات واصفة الملل، وطول الليل، والحزن، ووجع الانتظار. كذلك عندما نقول هو طويل كيوم كذا، وهي لحظات لكنها استعارة تدل على التكرار والطول، فالمدة الزمنية من حيث هي كينونة زمنية موضوعية لا تساوي إلا نفسها، ولكن الذات هي التي حولت العادي إلى غير العادي، والقصير إلى طويل، كما تعمد هذه الذات نفسها إلى تحويل الزمن الطويل إلى قصير في لحظات السعادة وفترات الانتصار(١). وهو ذاته ما تعايشه الشخصيات في رواية "الباغ"، فما تكابده ليس من الزمن الخارجي فقط، بل الزمن الداخلي، والزمن تقادم العهد والسنوات، وهذا الزمن بالرغم من طوله، وتأثيره إلا أن لحظة واحدة من الزمن النفسي تعد قاتلة لمن يعايش أساها، فالحالة التي وصلت إليها "ريا" وصدمتها في الصراع بين "راشد"، و"زاهر" كانت أشد قسوة وطولا عليها من كل السنوات التي غاب فيها راشد، ويأتي فيها كغريب، وبين زاهر وهما بالنسبة لها لا ينقسمان، فعلاقتها براشد ليست علاقة الأخت بأخيها فقط، بل علاقة الأم بابنها والبنت بأبيها، كانت علاقة عميقة بقدر الغربة، والفقد والوحشة في بلاد جديدة، ومع ذلك مجرد التفكير أن راشد موجود كان كفيلا بتهدأتها وجعلها تتوازن، وتصبر، زاهر كان الشريك، فقد كان شريك راشد في حب ريا، ولم يكن مجرد التفكير واردًا في المفاضلة بينهما، منذ أن ترك راشد صرة المال بين يدي ريا، وهي في حالة من القلق النفسي، كانت لياليها تطول، وأيامها تتطاول من شدة التفكير، كل موقف كان يشكل لحظة مريرة من المعتقدات، الأمر الغريب في الرواية أن الرواية بدأت بعبارة: "يا نوصل رباعة.... يا نموت رباعة...". وكأن الكاتبة أرادت أن تخرج أحدهما (راشد وريا) من حلم يقظتهما الذي دام زمنا، وهي بذلك تحيلنا إلى زمن دائري مغلق تحكمت به اللغة، ففي الأدب تتحكم اللغة بالزمن والتعبير عنه، ووقعه على الشخصيات، والتغيرات التي تحدث لها على مر الزمن. وهذا ما عملت الرواية الحديثة على إبرازه إذ لم تعد تركز على تصوير الشخوص أو الأحداث بقدر ما تهتم بإبراز المتغيرات النفسية التي تحدث داخل الإنسان، نتيجة إحساسه القلق بإيقاع الزمن(٢).

فعندما خرج راشد وريا من السراير كان التساؤل: كيف ستمر الأيام بعيدا عن الرفاق والأهل؟ إذ تدرك شخصياتنا أهمية المكان في تحديد الزمن، ونوعه، فبين الأهل والسعادة تمر الأيام سريعا، وما أطول أيام الغريب الوحيد.

كان راشد هو الزمن النفسي السعيد والمبهج لريا، هو سعادتها، وهو ما يهوّن غربتها، وقسوة الأحداث الخارجية، فقد كان صَدَفَتَها القوية التي تحتمي تحتها، فبالرغم من الحروب

---

(١) مرتاض، عبدالملك، في نظرية الرواية – بحث في التقنيات، سلسلة عالم المعرفة: العدد: (٢٤٠)، ص: ١٧٦

(٢) عوض الله، مها حسن يوسف، الزمن في الرواية العربية (١٩٦٠ – ٢٠٠٠)، ص: ٣٠

والظلم من حولها، إلا أن كل ذلك لم يكن يقلقها، تشعر بقوة لمواجهة العالم بوجود محاربها النبيل، في هذه المرحلة كانت ريا تدرك أن قوتها تنبع من قوة راشد ووجوده حولها، وكانت على يقين من ذلك. لم يكن الزمن ليسلبها أمنها. فراشد الانفعالي ودائم الغضب ما زال وديعا، فالرغبة في الانتقام من عمه، وظلمة مازالت متأججة، لكن ريا كانت الماء الذي يطفئ النار، ويخفف من حدّة المرارة. فقد كانت تلك المعتقدات بالنسبة لريا معتقدات عقلانية، كان الإحساس بالمرارة هو غير العقلاني من راشد، وهو الأمر الذي لم يستطع تجاوزه، ومع ذلك فالإحساس ذاته سيحوّل شخصيته ليكون بتلك القوة وربما الشر.

ولأن الزمن النفسي يركز على قراءة أعماق النفس، ويقرأ وقع الزمن عليها، واستعارتها له، كان تركيزنا على النواحي الاعتقادية (Beliefs)، والإدراكية (perception)، وكيف أنها (المعتقدات والإدراك) تطورت تبعا لها مفاهيمنا حول الشر، إما بتحويله إلى خير أو بتطوير مكانيزمات الشر!

أما عن عوالم الزمن في رواية الباغ، فإننا سنقسمه في هذه الورقة إلى ثلاثة عوالم:

أولا: عالم الزمن التاريخي:

عالم التاريخ وهو عالم الزمن، فالتاريخ هو الزمن، وتظهر من خلاله دائرية الزمن، وتقلباته، عالم الزمن التاريخي نقصد به العوالم التاريخية وهي ما تؤرخ لحقبة زمنية معينة، ففي رواية "الباغ" على سبيل المثال تعرض الكاتبة "بشرى خلفان" حقبة زمنية طويلة بتفاصيلها، وهي فترة حكم السيد سعيد بن تيمور إلى فترة الإعلان عن تولي السلطان قابوس الحكم في البلاد، وقد انقسم التاريخ في رواية "الباغ" إلى قسمين:

أ): عالم الزمن التاريخي التخييلي:

وهو الجزء التخييلي وهو ما يسمى بـ"الحكاية"، والحكاية هي بؤرة الزمن، فهي لا تخضع لخطية الزمن، بل تتمرد عليه في أغلب الأحيان، ويتمثل في حكاية راشد وريا، وخروجهما من بلدتهما متعرضين للظلم، باحثين عن عالم عادل، وهذا الجزء التخييلي يأتي ليصف العالم الواقعي، ليكون الأبطال مؤرخين للأحداث الموازية.

ب): عالم الزمن التاريخي الواقعي:

تمثل هذا العالم في الثورات والحروب الداخلية، وقد عرضت تفاصيل الحروب الأهلية التي دارت في البلد مع التركيز على حرب تنوف أو الجبل الأخضر (١٩٥٤ – ١٩٥٧) – وقد تمت على مرحلتين الأولى من أوائل عام ١٩٥٤ إلى أواخر عام ١٩٥٥، أما المرحلة

الثانية فكانت عام ١٩٥٧ – ، إلى ظهور الشيوعية والمرتدين في ظفار (١٩٦٣ – ١٩٧٥)، نلاحظ أن الفترات الزمنية التي تعالجها الرواية قد وقعت في سنوات طويلة فعليًا (واقعيا)، حيث تقع أحداثها قبل حرب الجبل الأخضر، وتنتهي قبل انتهاء ثورة ظفار، دامجة بين زمنين مختلفين، وأيضا بين جيلين من الذي عايشوا الحربين، ووحده الأدب يستطيع تجاوز تلك الحدود الزمنية، وتجاوز خطية الزمن وبطئه، واضعة نصب عينيها ممكنات الحياة، كما لو أن كل حياة، وكل شخصية لها عالمها الموازي، مع الاعتراف بأن الكتابة الأدبية في حد ذاتها عالم موازٍ مختلف، يحيل إلى مرجعية واقعية أو تخييلية.

ثانيا: عالم زمن المعتقدات:

نقصد به عالم الأفكار – وهو يلعب دور الزمن النفسي لانطلاقه من الانفعالات والأفكار – وما يعتقدونه فكريا بعيدا عن المعتقدات الدينية، حيث لكل شخصية معتقداتها، وظنونها التي لم تصل بها إلى العالم الذي كان سيجعل النهايات أكثر انفتاحا، وأقل مأساوية.

وقد تجلت في "الباغ" حيث تبدو ريا في الرواية الشخصية الخيّرة، فمنذ المشهد الأول من الرواية، وهي تقاد من أخيها الذي لم يعطها الفرصة لتفكر، وتتخذ قرارها إما بالمكوث في السراير، أو بالذهاب إلى مسقط، كأن راشدا لم يفكر في مغبة اجتثاث أخته من أهلها وجذورها، "قال لها والوادي سيل جارف: "نخوض، ويا نوصل رباعة، يا يشلنا الوادي رباعة"، لم تقل شيئا، ولفت ذراعيها النحيلتين حول جسده بقوة[١]"، فراشد كان غاضبا منفعلا، وينظر إلى نفسه بأنه الضحية، فوالده اعتنى بتعليم ريا القرآن، لكنه أوكل إلى ابنه الاعتناء بالمال، والنخيل، ومع ذلك كان ذلك موقفا مهينا لراشد؛ لأنه وضعه في المستوى ذاته مع الخدم، والعمال. يقول لريا في حديث لهما "أنت علمش القرآن، وقصص الأولين، والأدعية، وأنا ما علمني شيء غير الكد في النخل[٢]".

يتكرر المشهد عندما يظلمه عمه بأخذ أمواله، ومحاولته تزويج أخته ريا لابنه الذي لا يليق بها، طوال الرواية تبدو ريا تلك الفتاة التي تستلهم قوتها من صمتها، وملاحظاتها الصامتة للأشياء من حولها، ومن كونها تحت حماية راشد الذي يشكل كل عالمها، ليأتي علي (زوجها) بعد ذلك لإمساك زمام أمرها، وترك الأمور للزمن ليعالجها، فهي بقرآنها متسامحة، لكنها مع ذلك تبدو شخصية سلبية ومجردة من الإرادة، (فهل ريا تمثل السلطة أو الشخص الذي لا يملك قياد نفسه؟)،فهي عاجزة عن حكم نفسها وصنع مصيرها، وكأنها تستمتع بلذة

(١) خلفان، بشرى، الباغ (رواية)، مسعى للنشر: كندا، الطبعة الأولى: ٢٠١٦، ص: ٩
(٢) خلفان، بشرى، الباغ (رواية)، ص: ١١ – ١٢

البلادة من خلال إيجاد من يتخذ عنها القرارات، وبالتالي إيجاد مبرر لكل المصائر التي ستؤول إليها بأنها مغلوبة على أمرها، لكن الكاتبة ستخرج ريا من صمتها لتتحول إلى لبؤة عندما يتم الإمساك بابنها في جرم لم تتقبله، لأنه ببساطة يجعلها أمام مواجهة لنفسها بأنها هي نفسها لم تكن لامعة، تخرج ريا عن صمتها، وتواجه أخاها راشد الذي كانت تحبه، فتخرج كل غضب السنين والاجتثاث الذي قام به ضدها، كل هذا تجعله مقابل إخلاء سبيل ابنها، وعدم معاقبته، أهو خروج الشر من قمقم التقوى والهدوء؟.

إذن فراشد هو الشخص الذي سممه الألم فهو شخص دائم الغضب وسريعه أيضا، لذلك نجده شخصية انفعالية بإمكانها الفتك بالآخرين، وهي رهينة هذا الغضب، كذلك لا توجد ثوابت قيمية واضحة لديه، مع أننا كلما تعمقنا في قراءتنا للنص، نجد أن راشدًا أمام ثابت وهو حبه لبلده واستعداده للدفاع عنه ممن يهدد أمنه، حتى وإن كان زاهر الذي كان كابن له، حتى لو كان الضلع من ريا، كانت فلسفة المواطنة والعسكرية عميقة لدى راشد، لكن جودة روحه ونقائها تظهر أثناء مراجعته لبعض المواقف التي مر بها كما حدث في تنوف، إن ما مر به راشد يسير به نحو عالم من الكراهية والرغبة في معاقبة الجميع على ما فعلوه، وكأنهم لا يثمنون ما هم فيه بالرغم من مراراتهم، إن الألم هو ما يحرك راشدًا، ويصل به أحيانا إلى درجة العمى (عمى البصيرة)، إن الألم واشتداد الظلم هو ما صنع راشد. عند أطراف البلدة، قالت له:

– الناقة تعبانة، خلنا نبات هنا[1].

– بلادٍ ما ترد الظلم عن أولادها ما نبات فيها ليلة.

– مسقط بعيدة...

ثم أردفت بتردد:

– ويقولوا أهلها ظُلاَّم.

– أهلها ما أهلنا. لكن لا تقولي حال حد ظلمنا أهلنا وغدروا بنا، لا تقولي تركنا السراير من مهانة وظلم. قولي هَبَّطنا الجوع. البلاد كلها تجوع، بس لا تقولي هِنّا على أهلنا. تراها الناس في هذه البلاد ما تعرف إلا القوي الجبار.

إذن راشد كان يحكم الأمور بمنطق القوة، فهو يعتقد أن القوي هو المهاب والمحترم، لذلك كان طوال حياته يفكر في كيفية أن يصبح قويا، لكي لا يتطاول عليه أحد، وهي ظن من راشد بأن القوة تعويض عن المعرفة التي اكتسبتها ريا وفقدها هو، وكان لديه اعتقاد صارم بأن الظلم عندما يقع من الأهل يكون أشد وطأة من كونه من الغريب، لذلك كان عليه أن يكتم حكايته عن الآخرين لكي لا يقع في دائرة الظلم.

---

(١) دعنا نبيت هنا.

ثالثا: عالم زمن الإدراك:

وهو العالم الذي لم تصل إليه الشخصيات في الرواية؛ بمعنى أن بعض الشخصيات كادت تقاربه، لكنها تنحرف عنه، عندما يتعارض مع مصالحها، ونقصد بهذا العالم: إدراك الذات، وتفهّم الآخر، وإيجاد الأعذار، والمبررات له، كما أن هذا العالم كان سيجعل الشخصيات متسامحة مع بعضها بعضا، ومتقبلة للتعددية الفكرية التي يتيحها الزمن للكائن؛ لتصبح حقا من حقوق الآخر.

عندما نقول إن الشخصيات لم تصل إلى حالة الإدراك، فإننا نقصد أن القرارات المتخذة من قِبَلها هي قرارات فيها شيء من العشوائية، والأمر نفسه يصدق على الأحكام التي كانوا يصدرونها ويتصرفون بموجبها، كما ذكرنا آنفا راشد لم يدرك غرارة سن زاهر، فزاهر تأثر بصديقه ياسين والقضية الفلسطينية وتأثر بالقومية قبلها، وعندما تم تجنيده قال له الرجل الغريب في حوار عن القومية والقوميين وهزيمة العرب:

اسمع يا زاهر، أعرف إنك بعدك صغير، لكن...

ليرد عليه زاهر: أنا ما صغير[١].

ربما كان زاهر يسعى إلى الحرية والاستقرار والانفتاح في بلده، لكن دخوله لصفوف الثوار كان نتيجة شخصية عاطفية، لا تدرك مغبّة الأمور، ولا تقيسها بمقياس العقل، فتلك كانت تجربته الأولى بعد تعاطفات سابقة كما ذكرنا، كما أن الزمن لم يمنح زاهر الفرصة لينضج، فزاهر عاش الحب الذي لم يستطع أن يحرره، والعلم لديه لم يبلغه المدى الذي يجعله يفكر في مغبة ما يحدث، والدليل أن الحوارات بين زاهر وراشد قد تمت بعد حكم السلطان قابوس، لكنه رفض كما رفض غيره الاستسلام، وإعطاء الفرصة للقيادة الجديدة التي قد تكون مختلفة، كما قال علي والد زاهر في حوار مع زوجته ريا: تقول ريا عندما رأت عليا سعيدا باستلام السلطان قابوس لدفة الحكم: وأنت مو درّاك أنه ما كَمَا أبوه؟[٢]، فرد عليها: ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل. وأكيد ما كما أبوه، لو كما أبوه ما خلاه يترك الحكم[٣].

ويتكرر المشهد عندما يقنع راشد زاهرا بالاستسلام فيقول له: السلطان تغير تعاون معنا، فقاطعه زاهر بقوله: لم يتغير شيء غير الأسامي[٤]. فزاهر لا يدرك مفهوم الزمن في إعطاء الفرص، فالأحكام التعميمية تدل على عدم النضج ونقص الإدراك.

---

(١) خلفان، بشرى، الباغ (رواية)، ص: ٢٦٤

(٢) وأنت ما أدراك أنه ليس مثل والده؟

(٣) خلفان، بشرى، الباغ (رواية)، المصدر نفسه، ص: ٢٨٣

(٤) خلفان، بشرى، الباغ (رواية)، المصدر نفسه، ص: ٣٢٥

كما أن زاهرًا لم يدرك عبودية خاله للنظام وحالة الامّحاء التي كان عليها بإلغاء عقله، وترك اتخاذ القرار للآخرين،

فراشد عندما عاد من حرب الجبل كما تصفه الكاتبة:

"عاد راشد إلى المعسكر في فلج القبائل لكنه ما عاد إليه كما ذهب، هو ممزق بين الدماء، والأشلاء، والولاءات، والأفكار، والأسئلة.

لكنه عسكري، عسكري في جيش السلطان، والعسكري لا يسأل، العسكري يستجيب للأوامر وينفذ، ينفذ فقط.

على العسكري أن يلتزم برايته وبأوامر قائده فقط، أما الآخرون، الذين كانوا إخوته، فقد صاروا اليوم أعداءه...[١]".

كذلك انعدام المناقشات، التي تظهر تفهم واحدهم للآخر باسم الحب الذي جمعهم، كل ذلك يدل على حالة عدم الإدراك لدى الشخصيات في الرواية، فهي لم تصل للإدراك الذي يحررها من تلك المصائر التي آلت إليها.

وكما في الواقع تبدو الحياة كحلم نصحو منه لنكون على ضفة أخرى تسمى الواقع يلعب فيها الزمن لعبته عن طريق أكبر أعوانه شراسة: الذاكرة، والحلم، وما يسمى الواقع.

في الخاتمة: نخرج من هذه الدراسة أن الأدب وقف على ثابت ومتحول في الزمن، فأما الثابت فهو أن الأدب اشتغل بعمق على ثيمة الزمن، لأنه لا حدث بدون مكان وزمان – فالزمان والمكان من عناصر السرد – فالزمن الكوني لم يظهر إلا بظهور الخلق، وأما المتحول أن الزمن لم يكن زمنا كما هو في الواقع، وإنما يتلاعب الأدب بهذه الزمنية، فمنها ما يقفز على الزمن، فلا يسير الزمن بخطية واحدة أي أنه لا يسير إلى الأمام دائما، فربما تكون الشخصية في الزمن الحالي لكنها تتذكر أحداثا ماضية، فتستخدم اللغة من الزمن الماضي (الأفعال الماضية)، أو أنها وهي في الحاضر تستشرف المستقبل، فتستخدم الأفعال الدالة على المستقبل (المضارع + السين "سنفعل أو ستفعل")، أو استخدام الأفعال الاحتمالية (قد + الفعل المضارع)، فمثلا في رواية "الباغ" بالرغم من أن الكاتبة معاصرة، إلا أنها نقلت الأحداث إلى الماضي، فقد نقلت الكاتبة السرد إلى تلك الفترة،واستخدمت الأفعال المضارعة الدالة على اللحظة الراهنة.

---

(١) خلفان، بشرى، الباغ (رواية)، المصدر نفسه، ص: ١٣١

وتعد اللغة هي المعبّر الأول عن الزمن في الأدب، عن طريق السرد، فلغة السارد هي التي تحدد الفترة الزمنية للأحداث، سواء عن طريق وصف الحقبة الزمنية أو عن طريق أزمنة الأفعال.

أيضا نخرج بأن الزمن وحده المتكفل بتطوير أفكارنا،ومعتقداتنا، وإنضاجها لتكون دالة على الوعي والإدراك الذي نصل إليه أو وصلنا إليه فعلا، ربما في حياتنا الواقعية لا نستطيع التنبؤ بشكل دقيق بما سنكون عليه، وبما سيكون عليه وعينا، لكن الأدب؛ ولأنه يقفز على بطء الواقع، وبالتالي على عدم مشاهدتنا ومقدرتنا على الحكم على الحالة الإدراكية التي وصلنا إليها، فإن الأدب يضع لنا الكثير من الاحتمالات لما ستكون عليه شخصياتنا عندما نتتبع من خلاله – الأدب – شخصيات تشبهنا، وربما تكون تلك الاحتمالات التي لا نريد مواجهتها بشكل فعلي. ففي رواية "الباغ" تصل الشخصيات الرئيسة إلى طريق مسدود في مفاوضاتها العقيمة، وكل يتهم الآخر بالشر، ولا يرى شره الذاتي، بمعنى أن المعتقدات اللاعقلانية كانت مسيطرة على الشخصيات الثلاث الرئيسة، ولم تحاول واحدة منها أن تطرح السؤال العقلاني الأساسي: ما مقصدك من كل هذا؟ فكل من راشد وريا وزاهر يظن أنه مصيب في استنتاجاته وما ذهب إليه، وتعامل معه على هذا الأساس، كان الإدراك الذي لم يصلوا إليه احترام اختلاف معتقداتهم، وتفاهة الشر الذي وصلوا إليه؛ لأن لا أحد منهم مقتنع بحالة الشر التي وصل إليها، فقد كان زاهر ينظر لراشد بوصفه عدوا؛ لأنه لم يفهم ولم يتفهم قضية راشد، فهو كان العدو فقط، أما راشد فكان زاهر خائنًا للبلد؛ ولم يعي غرارة سن زاهر، وعدم اكتمال نضجه المعرفي، وعدم تنازل أحدهما بالسؤال عما يقصد وسَّع الهوة بينهما بسوء الفهم، وعدم التفهم/عدم تفهم أحدهما للآخر، أما ريا فقد كانت بين ابن وأخ، لكنها في النهاية انتصرت لابنها، بعد الخيانة التي أصابتها من راشد، فتغلق الحكاية كما بدأها راشد "يا نوصل رباعة، يا يشلنا الوادي رباعة[1]"، تأتي العبارة من بعيد من أعماق الذاكرة تتذكرها ريا بصوت راشد، وكأنها تدرك لحظتها وهم كل ما حدث، ووهم المصير المشترك بينها وبين راشد، وبالتوائية اللغة ينغلق الزمن الدائري الذي استخدمته الكاتبة كتقنية في روايتها، فما بدأنا به ننتهي به، وبلحظة إدراكية صادمة لريا، أما راشد فكل ما أدركه أنه ضمن نظام توليتارتي قاهر جعله غير قادر على التفكير في القرارات المتخذة من قبل القيادات، ومدى صحتها، ما يمكن أن تؤدي إليه من نتائج، عندما ننظر للأحداث من بعيد ندرك تماما العجز الذي كانت عليه الشخصيات، وضبابية المفاهيم من خير وشر، ومفاهيم الحرية، وسذاجة الأفكار، كل هذا

(١) خلفان، بشرى، الباغ (رواية)، ص: ٣٣٤

يجعلنا ندرك تفاهة الشر[١] في الرواية، إذ ما أهمية الشر إن كان منفذه مجرد أداة في أيدي الآخرين ينفذ أوامرهم دون تفكير؟ وما أهميته إذا كان المنفذ – وإن كان قد شعر بالندم تاليا – يقاتل من أجل مفاهيمه التي لا يعيها الآخر، وبالتالي لا يدرك أنه شرير، عندما تمر السنوات، ولا تقيم الشخصيات تقييما لمعتقداتها، ومدى عقلانيتها ولا عقلانيتها، فنحن فعليا أمام شر تافه غير متجذر، إنه شيء لا طعم له في ذاته، لكنه مُر في أفواه من وقع عليهم.

أيضا إن راشدًا كان يتألم وكذلك ريا، ولشفاء النفوس المعذبة لابد من شفاء النفس المعذبة، وبخاصة النفس التي تشكو من الزمن، من السأم بواسطة حياة موزونة/إيقاعية، وبفكر إيقاعي، وبانتباه وراحة إيقاعيين[٢]. ويقتضي شفاء النفس المعذبة: ١): تحرير النفس من الديمومات الزائفة، من الأوقات السيئة، ويقتضي تفكيكها زمنيا. ٢): نحرّك الحياة كلها الحياة المتموجة بحكمة من خلال الطوابع اللطيفة للحرية الفكرية[٣]. الزمان سلسلة انقطاعات[٤].

لا يمكننا إدراك المكان ولا يمكن إدراك الزمان، وإنما ندرك أشياء لها امتداد معين، وتقوم بينها (أو بينها وبيننا) ارتباطات معينة من حيث الوضع والتوجيه[٥]. أما المكان والزمان فهما كيفيتان عامتان لسائر إدراكاتنا[٦]، إذ إن فعالية الإدراك ذاتها هي فعالية تتم في المكان والزمان[٧]. لذلك سيرورة الأحداث وتلاطمها في عمان في الفترة التي تناولتها الرواية كانت مؤثرا كبيرا في الشخصيات وفي الزمن في الرواية.

---

(١) لفهم فكرة الشر وتفاهة الشر يمكن الرجوع إلى:
- أرنت، حنّة، إيخمان في القدس – تقرير حول تفاهة الشر، ترجمة: نادرة السنوسي، ابن النديم للنشر: الجزائر ودار الروافد الثقافية: بيروت، الطبعة الأولى: ٢٠١٤، بتصرف.
- كانط، إيمانويل، الدين في حدود مجرد العقل، ترجمة: فتحي المسكيني، جداول للنشر: بيروت، الطبعة الأولى: ٢٠١٢، بتصرف.
- شنيار، سجاد صالح، مسألة الشر عند فلاسفة الحكمة المتعالية في بلاد فارس، مجلة دراسات إيرانية: تصدرها جامعة البصرة العراقية، العدد: (١٣)، ٢٠١١، ص: ٨٩ – ١٢٤.

(٢) باشلار، غاستون، جدلية الزمن، ص: ١٠ – ١١.

(٣) باشلار، غاستون، جدلية الزمن، ص: ١١

(٤) باشلار، غاستون، جدلية الزمن، ص: ٤٨.

(٥) مورابيس، جوزيه (أستاذ محاضر في مخبر علم النفس التجريبي: الجامعة الحرة: بروكسل)، من حوار أجراه معه: إميل نويل، الفصل الحادي عشر: إدراك المكان والزمان، الوارد في كتاب: الزمان والمكان اليوم، ترجمة: محمد وائل بشير الأتاسي، دار الحصاد للنشر: سورية، الطبعة الأولى: ٢٠٠٢، ص: ١٣٠.

(٦) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٧) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

ما لم تدركه الشخصيات التي رفضت التغير، وأرادت أن يعود راشد إلى ما كان عليه من وداعة، وفي لعبة الزمن لا يمكن إحياء الماضي إلا بتقييده بموضوعه (ثيمة) شعورية حاضرة بالضرورة، بكلام آخر حتى نشعر أننا عشنا زمنا، وهو شعور غامض دائما لابد لنا من معاودة وضع ذكرياتنا، كوضع الأحداث الفعلية في وسط من الأمل أو القلق، في تماوج جدلي، فلا ذكريات دون هذا الزلزال الزمني(١).

إن اشتمال الأفعال على صيغ زمانية حقيقية تدل على أن للاعتبارات المتضمنة متصور الزمان صلة باستعمال الأفعال المشار إليها. ولا تقتصر هذه الاعتبارات على التمييز الواضح بين الماضي، والحال، والاستقبال فحسب، إذ يوجد اعتبار آخر وهو عبارة عن تعلّق أدق وألطف بهذا المتصور. ذلك أن استعمال الفعل قد يشعر أيضا بالكيفية المخصوصة التي يقتضي بها ذلك الفعل مفهوم الزمان ويتضمنه(٢). فقد ظهر الزمن في الاستعارات المستخدمة، وفي الرواية كانت الاستعارة الأقوى عندما كان زاهر يفكر في والديه بالذهاب إلى الكويت لإكمال دراسته "آن أوان القسوة"(٣).

إن إدراك الزمن ليس جزءا من قواعد اللغة ولا معجمها، بل هو جزء من النسق الذهني لها، وبالتالي تتحول اللغة من غاية في ذاتها إلى وسيط نفهم من خلاله طرق اشتغال الذهن البشري(٤).

ما الزمن؟ هو حركة الأجسام، وهو طول الحركة(٥).

توصف اللحظة الزمنية باعتبارها نقطة وصول الحدث، مما يجعل البنيات التالية بنيات شاذة دلاليا؛ لأن مجال المدة مفتوح على الطول والقِصَر، على السرعة والبطء، على الضغط والشد العصبي، في حين تعد اللحظة مجالا مغلقا ونقطة تحقق الحدث ووصوله(٦).

---

(١) باشلار، غاستون، ص: ٤٧.

(٢) فندلر، زينو، مقال: الأفعال والأزمنة، الواردة في كتاب: إطلالات على النظريات اللسانية والدلالية في النصف الثاني من القرن العشرين – مختارات معرّبة، ترجمة: شكري السعدي، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون "بيت الحكمة": تونس، الطبعة الأولى: ٢٠١٢، ص: ٨٨٢

(٣) خلفان، بشرى، الباغ (رواية)، ص: ١٩١.

(٤) الحسني، عبدالكبير، التصور الاستعاري للزمن: من إدراك اللغة إلى إدراك الذهن، مجلة اللسانيات العربية: مركز الملك عبدالله بن عبدالعزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، العدد الأول، يناير ٢٠١٥/ربيع الأول ١٤٣٦، ص: ٧٩.

(٥) المرجع نفسه، ص: ٨١

(٦) المرجع نفسه، ص: ٩٠

المصادر والمراجع

المراجع العربية:

١): الأطرش، رابح، مفهوم الزمن في الفكر والأدب، مجلة العلوم الإنسانية، المجلد: ٢، العدد: ٢، مارس: ٢٠٠٦، يوجد المقال في الموقع الإلكتروني: (http://www.webreview.dz/IMG/pdf/2-_02.pdf).

٢): أرنت، حنّة، إيخمان في القدس – تقرير حول تفاهة الشر، ترجمة: نادرة السنوسي، ابن النديم للنشر: الجزائر ودار الروافد الثقافية: بيروت، الطبعة الأولى: ٢٠١٤.

٣): باشلار، غاستون، جدلية الزمن، ترجمة: خليل أحمد خليل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر: بيروت، الطبعة الثالثة: ١٩٩٢.

٤): بدوي، عبد الرحمن، موسوعة الفلسفة، الجزء الثاني (ش – ي)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر: بيروت، الطبعة الأولى: ١٩٨٤.

٥): برنس، جيرالد، قاموس السرديات، ترجمة: السيد إمام، ميريت للنشر: القاهرة، الطبعة الأولى: ٢٠٠٣.

٦): بورخيس، خورخي لويس، قصة قصيرة: حديقة الممرات المتشعبة، ترجمة: فوزي محيدلي، نشرت: يوم الأحد: ٧ نوفمبر ٢٠١٠، بجريدة المستقبل: لبنان، العدد: (٤٣٦٠٩٤)، الموقع الإلكتروني: (https://almustaqbal.com/article/436094/).

٧): الجرجاني، معجم التعريفات – قاموس لمصطلحات وتعريف لعلوم الفقه واللغة والفلسفة والمنطق والتصوف والنحو والصرف والعروض والبلاغة: مبحث: الزاي مع الميم، تحقيق: محمد صدّيق المنشاوي، دار الفضيلة: القاهرة، (د. ط): ٢٠٠٤.

٨): الحسني، عبدالكبير، التصور الاستعاري للزمن: من إدراك اللغة إلى إدراك الذهن، مجلة اللسانيات العربية: مركز الملك عبدالله بن عبدالعزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، العدد الأول، يناير ٢٠١٥/ربيع الأول ١٤٣٦

٩): خلفان، بشرى، الباغ (رواية)، مسعى للنشر: كندا، الطبعة الأولى: ٢٠١٦.

١٠): شنيار، سجاد صالح، مسألة الشر عند فلاسفة الحكمة المتعالية في بلاد فارس، مجلة دراسات إيرانية: تصدرها جامعة البصرة العراقية، العدد: (١٣)، ٢٠١١.

١١): عوض الله، مها حسن يوسف، الزمن في الرواية العربية (١٩٦٠ – ٢٠٠٠)، أطروحة دكتوراة، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٢.

١٢): فندلر، زينو، مقال: الأفعال والأزمنة، الواردة في كتاب: إطلالات على النظريات اللسانية والدلالية في النصف الثاني من القرن العشرين – مختارات معرّبة، ترجمة:

شكري السعدي، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون "بيت الحكمة": تونس، الطبعة الأولى: ٢٠١٢.
١٣): كاكو، ميشيو، فيزياء المستحيل، ترجمة: سعد الدين خرفان، سلسلة عالم المعرفة: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب: الكويت، العدد: (٣٩٩)، أبريل ٢٠١٣.
١٤): كانط، إيمانويل، الدين في حدود مجرد العقل، ترجمة: فتحي المسكيني، جداول للنشر: بيروت، الطبعة الأولى: ٢٠١٢.
١٥): لالاند، أندريه، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب: خليل أحمد خليل، المجلد الثالث: (R Z –)، منشورات عويدات: بيروت – باريس، الطبعة الثانية: ٢٠٠١.
١٦): مرتاض، عبدالملك، في نظرية الرواية – بحث في التقنيات، سلسلة عالم المعرفة: العدد: (٢٤٠)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب: الكويت، ديسمبر: ١٩٩٨.
١٧): المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية: القاهرة، (د. ط): ١٩٨٣.
١٨): موراييس، جوزيه (أستاذ محاضر في مخبر علم النفس التجريبي: الجامعة الحرة: بروكسل)، من حوار أجراه معه: إميل نويل، الفصل الحادي عشر: إدراك المكان والزمان، الوارد في كتاب: الزمان والمكان اليوم، ترجمة: محمد وائل بشير الأتاسي، دار الحصاد للنشر: سورية، الطبعة الأولى: ٢٠٠٢.
١٩): هوكينج، ستيفن وليونارد مولدينو، التصميم العظيم – إجابات جديدة على أسئلة الكون الكبرى، ترجمة: أيمن أحمد عياد، دار التنوير للطباعة والنشر: بيروت، الطبعة الأولى: ٢٠١٣.
٢٠): وهبة، مراد، المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة: القاهرة، الطبعة الخامسة: ٢٠٠٧.
٢١): وولف، فريد آلان، مع القفزة الكمومية – كتاب يفلسف الفيزياء الجديدة لغير العلميين – سلسلة الثقافة المميزة (٨)، ترجمة: أدهم السّمان، مكتبة دار طلاس: دمشق، الطبعة الثانية: ٢٠٠٢.

المراجع الأجنبية:

٢٢):Siegel, Ethan, article: Is There Another 'You' Out There In A Parallel Universe?, from: forbes: USA, published on: Nov 18, 2016, 10:00am, website: (https://www.forbes.com/sites/startswithabang/2016/11/18/is-there-another-you-out-there-in-a-parallel-universe/#304baef634f7).